العالم يواجه مأزقا حقيقيا

أولا : مقدمات وإرهاصات العولمة .

1- معنى العولمة وتعريفها :

تبلورت ظاهرة تاريخية جديدة فى العالم ، اسمها " العولمة " عند نهايات القرن العشرين ، ولم يكن الناس قد سمعوا بهذا المصطلح فبدأوا يسألون عن هذه الظاهرة الجديدة منذ العام 1992 ويستفهمون عن معنى " العولمة " وفحواها ، حتى يومنا هذا ، بعد مرور أكثر من عشرين سنة على ولادتها ونشر كتابات لا تعد ولا تحصى عنها ،مع تفسير طبيعة الظاهرة التى ستتبلور أكثر وأكثر من خلال تغيير العالم[3].

ومنذ بداية التسعينيات من القرن العشرين بدأ التشدد على معنى الظاهرة في ثقافتنا المعاصرة ، وماهية خلفياتها التاريخية .

إن من أوائل العلماء العرب الذين اشتغلوا على مفاهيم العولمة هو المفكر المصري سمير أمين . وبقراءة ورقة السيد ياسين في ندوة العرب والعولمة ببيروت عام 1997م تجده قد أرجع مفهوم العولمة وتاريخها إلى قرون مضت وبالرغم من الاعتراضات التي سجلت

علـى تفسـيراته الـتي اسـتلهمها مـن آخـرين لم يتنـازل عـن فكرتـه التي طرحها حول العولمة .

صـحيح أن العولمـة هـي نتـاج حركـة دمـج العـالم وانتقالـه مـن ظـاهرة كـبرى إلى أخـرى وأن التحـولات التـاريخيـة موجـودة باسـتمرار وعبر كل العصور التاريخية ، بيد أن حراك العولمة أخذ يتسارع إبان عقد التسعينيات من القرن العشرين حتى وصف أحدهم السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين بأن ما حدث فيها أكثر بكثير مما حدث من تطورات على مدى آلاف السنين من حياة الإنسان على الأرض إن التطورات التـي انبثقت في التسعينيات الأخيرة بشكل خاص قد استمدت صورتها من الثورة العلمية ومن التكنولوجيا الراهنة لتشكل حصـيلة مـن التطـورات المدهشـة في وسـائل الإعـلام والاتصـالات والمعلومات التي تقود اليوم إلى المستقبل المجهول[4] .

إن العـالم اليـوم يعـيش لحظـة بـدايات ظـاهرة العولمـة ومـازال يتعرف على مقدماتها ، ويؤسس فلسفة بها وللوجود على امتداد القرن الواحد والعشرين ، وهى فلسفة تختلف تماما عن الفلسفات التى عرفها الإنسان منذ آلاف السنين[5] .

ولكن المشكلة أن العالم لايعرف مطلقا أين سيقوده هذا الطريق وإلى أين تتجه العولمة بالعالم ؟ وما هي نهاياتها ؟ وما "الظاهرة" التاريخية الكبرى التى ستليها فى القرن الثاني والعشرين ؟.

2- الجذور الفكرية للعولمة :

ثمة محاولات فكرية عديدة منذ سنوات مضت لإدراك الخلفيات والأسس والمرتكزات وثمة محاولات أخرى لفهم طبيعة التحولات والمتغيرات فى جميع الاتجاهات والمجالات ، وثمة محاولات لاستيعاب هذا العالم الجديد وفهم سماته الأساسية وإدراك مساراته المستقبلية منذ عقدين من السنين ، ولكن إذا كانت هناك مجتمعات علمية فى هذا العالم قد أدركت بعض المفاهيم والأفكار بعد مناقشتها فإن ثقافتنا العربية لم تزل غارقة فى ماضوياتها من دون أن تناقش وتفكك وتنتقد أعمالا مهمة مثل كتاب المؤلف "صمويل هنتنجتون "بعنوان "صدام الحضارات" [6] .

الذى أشار فيه إلى أن البشرية – وهي فى طريقها نحو عالم جديد – مقبلة على حرب دامية بين مناطق الحضارة الكبرى وأن صداماتها تتركب من حداثة العصر وبقايا التاريخ ، وأن المسلمين – وفق رأيه – هم الأكثر خطورة من تلك البقايا فى مواجهة العصر.

وهناك كتاب "فرانسيس فوكوياما" فى كتابه "نهاية التاريخ " الذى شخص فيه المرحلة الراهنة من التاريخ ، كأنها مرحلة انتصار نهائي للنموذج السياسي والفكري الليبرالي الذى يحظى بالقبول الواسع من أكبر قدر من الدول والمجتمعات فى العالم [7] .

وأيضاً كتاب "بول كيندى " "صعود الإمبراطوريات وهبوطها" الذى توقع فيه انهيار الاتحاد السوفييتي ، وتنبأ باحتمال تراجع هيمنة الولايات المتحدةعلى الشأن العالمي فى المستقبل إذا ظل الإنفاق العسكري الأمريكى على مستوياته العالية والتى لاتتناسب مع نصيبها من الإنتاج الإجمالى العالمى [8] .

وأيضاً كتاب " رونالد روبتسون" "العولمة " الذى يؤكد أن العولمة هى أشبه بظاهرة تطور نوعى جديد فى التاريخ الإنساني بعد أن غدا العالم أكثر ترابطاً وأكثر تماسكاً ، وأن الوعي بهذا الارتباط والتماسك هو من أهم سمات هذه اللحظة [9] .

وأيضاً كتاب "ستيفن هاجبليد " الذى جمع فيه دراسات قوية وممتازة حول العولمة والتحولات "وتحدث فيه عن حداثة القوى التكنولوجية وتصاعد التكتلات الاقتصادية الجديدة التى سيكون لها دور مؤثر وكبير في تشكيل مستقبل البشرية خلال القرن الحالى[10] .

إضافة إلى أعمال (ألفين توفللر) "الموجة الثالثة" ،"صدمة المستقبل "و "تحولات القوة " [11]. قام ألفين توفللر بكتابة كتبه وشاركته زوجته فيها ، واشتهر كثيرا بهذه الكتب الثلاثة التالية :

- *Alvin Toffler, Future Shock, Bantam Books, 1970.*
- *Alvin Toffler, The Eco-Spasm Report, Bantam Books, 1975.*
- *Alvin Toffler, The Third Wave, Bantam Books, 1980.*

فضلا عن أعمال "سمير أمين " عن العولمة ورسمه خطوطاً عن توحش الرأسمالية وطغيان القوى الكابيتالية فى العالم كله وتآكل عالم الجنوب من قبل عالم الشمال [12] .

وأيضاً أفكار المهدى المنجرة ، عالم المستقبليات المغربي "عولمة من أجل التنوع الحضارى" [13] .

إذ يحلل حالة الفوضى التى ستخلقها الظاهرة فى العالم وانسحاق بعض الشعوب .

وفي عالمناالعربي نلاحظ تعليلاً وظيفياً باعتباره هو وسيلة للحصول على وظيفة والتعامل مع النظام النيروقراطي فالتعليم بهذا المفهوم ليس تعليما للحياة وبذلك تنعدم فرص المشارك فيه والمساهمة في صنع ما يدور من حولنا في العالم ومن ثم نكون في معزل عن مايتم

في العالم من تغييرات علمية وتكنولوجيا وبذلك تحدث تناقضات في الثقافة العربية في تفسير العولمة .

3- الثقافة العربية فى مواجهة العولمة :

ضجت الثقافة العربية منذ عام 2000م ، بكتابات لاحصر لها عن "العولمة" بحيث تضمنت كما هائلا من تفسيرات ، وإنشائيات وإسهابات ، وترجمات واستلابات ، وادعاءات كثيرة جدا . إذ وصفت بأنها يونانية ورومانية ومصيرها مصير يوليوس قيصر ، وقيل إن المسلمين كانوا من أوائل العولميين فى التاريخ ، فى مكان آخر نقرأ أن رسول الإسلام هو الذى خلق أول عولمة فى التاريخ ، ويهب أخرون ليقولوا إن الإسلام نفسه عولمي ، كما عرفت أنها نظرية وليست ظاهرة، كأنه لم يشهد منتجاتها فى الوجود المعاصر.... إلخ من التشبيهات والأمثلة التى لا أساس لها من الصحة مطلقا ، من دون أى عناء لمزيد من القراءات والفحوص للعناية ليس بالمصطلحات والتعابير المخطوءة فقط ،بل يمكن القول : "إن فساد التفكير طال أغلب المضامين والمعاني والاقتصار على معرفة ذلك من خلال ما ينشر على صفحات الإنترنت بلا أى قيد أو شرط ، والإنترنت نفسه واحد من منجزات العولمة" والمصيبة الأعظم أن هناك من يسمع أو يقرأ ، لكنه يستكين لأنه

لايعرف أو لايدرك أو لا يفقه ، بل يرى أن "الموضوع" مادام جديدا ومستحدثا ،فكل ما يدور حوله هو من قبيل "وجهات النظر" وليس حقائق لا أمور ، وثمة معلومات مؤكدة عنها ، إن المشكلة الحقيقية فى ثقافتنا العربية اليوم تكمن فى ندرة من يرصد وينقد ويحاور ويناقش فى النظريات والمصطلحات والمعلومات والمفاهيم والأفكار بل ازدادت المسرودات والنقولات ووجهات النظر والخطابات السياسية فى الفضائيات والصحافة اليومية والمجلات الأسبوعية وحتى الحوليات التى تدعى لنفسها الرصانة العلمية على غيرها ، وبات القراء وكل المهتمين فى تيه عجيب غريب من بحر متلاطم بالكتابات الفضفاضة والعقيمة التى تضرهم ولا تنفعهم أبدا ، ولقد تبلور كل ذلك من خلال الخلط المبهم بين المعرفى والأيديولوجى اليوم[14] .

وقد أثر ذلك بطبيعة الحال الفكر السياسي الذي كان لزاماً عليه أن يعيد صياغة أفكاره بما يستوعب المستجدات التي أفرزتها ظاهرة العولمة .

وقد ترافق مع ظهور مصطلح العولمة موجة من النقد والهجاء أفرزت على إثرها تشكيلات اجتماعية جديدة للعمال والمزارعين في الدول الأكثر غنى أو دول الشمال، يبدو أكثر قرباً من انتمائه إلى

طبقة اجتماعية محدودة ومحصورة بإقليمه أو قطره الوطني فنحن إزاء ظاهرة أشبه بالجديدة ذات حوامل إعلامية واقتصادية وسياسية جديدة ومختلفة ، مما يعني ضرورة توليد آليات وأدوات لفهم الظاهرة تكون جديدة أيضاً وإلا حكمنا على الظاهرة من منظورمسبق بمفاهيم قديمة ، أصبحت غير ذي جدوى أوفاعلية في اكتناه هذه الظاهرة .

وهنا يطمئن الفرق بين خطاب يعمل على نقد العولمة ولكن من منطق الفهم أولاً ثم المواكبة ثانياً وبين خطاب يعيد إنتاج مصطلحاته ومفاهيمه ليسقطها على ظاهرة العولمة ، التي هي بحكم تشكلها التاريخي ظاهرة مستحدثة .

إن الاكتفاء بوصف العولمة على أنها نمط استعماري امبريالي قديم ، تحلى بثوب جديد لن يمكننا من فهم بنيتها الداخلية والصيرورة التي تحكم آلية عملها مما يوقعنا دائما في خانة الغائب تاريخيا وغير القادر على الانسجام مع العصر ، بما يتطلبه ذلك من تحديث طرائق ووسائل التعامل مع الظواهر الجديدة .

فالإصرار على التمترس وراء النماذج والقوالب التاريخية يدفع بوضعنا الحالي إلى حالة من الغياب يكرس لعدم القدرة على التحاور بشكل مرن وجيد مع الآخر ، الذي أصبح يملك زمام المبادرة والمبادأة

إن هذه الخطاب مازال ينتمي إلى زمن النضال الأيديولوجي ، والكفاح المعرفي ، فهو لايتصدى إلى الثورة التقنية والمعلوماتية والاكتشافات العلمية والجينية بعقل يعمل أولاً على استيعاب ما تم وأنجز ، وإنما استخراج أسلحته القديمة التي أصابها الصدأ ليتعامل مع هذه الحوادث الكونية[15] .

4- الرهانات السياسية في سياق العولمة :

ربما يكون المجال السياسي هو الأكثر حساسية للتغيرات التي فرضتها العولمة على اعتباره الأكثر ارتباطاً بالتحولات الاقتصادية والأكثر تأثراً به لا سيما مع دخول سياسة اقتصادية جديدة ، يمكن اعتبارها بمثابة اللغة التي سيتم وفقها فرز الأنظمة السياسية القائمة مع الاعتراف بتقادم الفرز الأيديولوجي السابق القائم على منظومة الدول الاشتراكية ومنظومة الدول الرأسمالية ودول تتجاذب بين الطرفين أطلقت على نفسها دول عدم الانحياز ، إذ يبدو هذا التقسيم غير قادر على تفسير التداخلات المعقدة والمتشابكة للعلاقات الدولية والسياسية والاقتصادية القائمة في الوقت الحالي ، ويبدو سؤال مصير الدولة القطرية أومستقبلها يؤرق غالبية النخب السياسية في دول العالم الثالث ، ذلك أنها شعرت أن دولها لم تتحصل على الوقت الكافي

بعد لإنشاء دولها وكياناتها القطرية بمعناها القومي والحديث ، أي بناء الدولة بمؤسساتها وأبنيتها الوطنية القادرة على إدغام الخلافات العشائرية والإثنية والقبلية والطائفية التي تعتبر عوامل ما قبل وطنية إذ لاتلبث هذه النزاعات أن تتكاثر وتتزايد وتهدد كيان الدولة الوطنية بأكمله ، مع بزوغ أي حدث سياسي أو هزة دولية ذات انعكاسات عالمية لذلك يبدو سؤال انهيار الدولة الوطنية وزوالها بمثابة المنجل الذي يحصد القمح قبل نضوجه ، ذلك أننا لم نحصل على قمح جديد ولا على تربة مناسبة للزراعة بعد أن نبت القمح فيها وكل ما حصلنا عليه هو مسوخ شائهة لاتفيد ولا تؤدي الوظيفة المطلوبة منها لذلك ، فانهيار الدولة يبدو بمثابة كارثة لدول العالم الثالث التي ستعود إلى النموذج الصومالي أو الأفغاني ، أي على أشتات تتنازع السيادة دون أن تحصل على شئ منها وما دام منطق الدولة القومية قد فرض نفسه على المجتمعات كافة وإن تبنت طريقاً آخر في التطور السياسي والحضاري ، فإن التنازل عنه في الوقت الحالي يؤدي إلى نتائج كارثية وتبدو مقولة "علينا أن نقف مع الدولة ضد الدولة " تكثيفاً دقيقاً لأزمة الدولة والنظام الحالي في دول العالم الثالث في ظل ظروف التغيرات الدولية والعالمية الجديدة ، وعلى رأسها بزوغ العولمة كظاهرة كونية[16] .

5-أهمية السياسة في إطار العولمة :

فقد كانت السياسة واحدة من القضايا المهمة التي تناولها الفلاسفة اليونان بالنقد والتحليل ، وقد شهدت أثينا أول مظاهر للديمقراطية التي تدعو إليها العولمة اليوم، وطرح الفلاسفة العديد من الأراء السياسية التى اعتبرت البدايات الأولى لصياغة الفكرالسياسى الغربى؛ فهاهو أفلاطون يطرح فى محاورة " الجمهورية " أول نظام سياسى للمدينة الفاضلة، ويليه أرسطو وغيره من الفلاسفة اليونانينالذين أثروا العالم القديم بأفكارهم الفلسفية والتى ألقت بظلالها على طابع التفكير الدينى الذى ساد فى العصر الوسيط فى العالمين الإسلامى والمسيحى .

ومثلث الأديان السماوية فكرا دينيا متكاملا تشكل بناء عليه طبيعة المجتمع ونظامه السياسى وقيم أفراده وبشكل عام ثقافته بشتى مظاهرها .

وقد لعبت على وجه الخصوص أفكار الفيلسوفين اليونانيين أفلاطون وأرسطو دوراً بارزاً فى السجالات الفكرية الدينية إذ تم تبنى الكثير من أفكارهما والمناهج الفكرية التى عملت كأدوات للجدل

الفكرى الدينى والسياسى والأخلاقى وغيره عند فلاسفة العصر الوسيط المسلمين أو المسيحيين[17] .

فعلى سبيل المثال : سيطرت أفكار أرسطو بشكل كبير على أوربا والتي تبنتها الكنيسة المسيحية ، وفي العالم الإسلامي قام الفارابي بمحاكاة مدينة أفلاطون الفاضلة واعتبر ابن رشد واحداً من أبرز شراح أرسطو في العصر الوسيط ولمدة ألفي عام تقريباً أي منذ ظهور التفكير الفلسفي تشكل العلم القديم بناء على الفلسفة والفكر الديني أي أن الفكر كان له اليد العليا وكان ذلك على حساب العديد من المظاهر السياسية والاقتصادية وغيرها .

واليوم تلعب وسائل الإعلام الدور الفاعل لليد العليا في صناعة السياسة رغم أننا قد عجزنا حتى الآن عن تحقيق تكتل ثقافي أو سياسي من أي نوع والأمر بلا شك أكثر صعوبة بالنسبة للتكتل الإعلامي وما يقف في طريقه من اعتبارات سياسية واقتصادية من جانب آخر فإن الاندماج والتوسع في مهام الإعلام يتطلبان التنسيق بين التربية والإعلام وأجهزة الثقافة الأخرى [18] .